

وهناك مسألة أخرية عن «التعبري» يمكن عرضها بمزيد من الإيجاز. «التعبري» وبني «الشكل»، وبعد ذلك نميز بني «الجيد»^١ ألسنا نجد أن الأعمال الفنية الجيدة والرديئة معا معبرة من الوجهة الجمالية؟ أليست لها كلها قيمة بسبب قدرتها التعبيرية هذه؟ ولم تكون القطعة املوسيقية جيدة لأنها تعبر عن الحزن مثلا؟ ألا يمكن أن تكون رديئة من الوجهة الجمالية؟ يفعلها معظمنا في هذه الأيام — أن يتدبروا في هذه الأسئلة إذا شاءوا أن يكون كلامهم وأغلب الظن أن هناك سبباً^٢ معقولاً معيناً لاستخدام لفظ حتى لو لم تكن شاعرين بهذا السبب بوضوح تام. تكون له — حسب تعريفه ذاته — دلالة أعظم مما يوحى به «منظره» الحسي وتكون الصور التي يوحى بها العمل، الحالة النفسية والأفكار التي يثيرها، بأنفسنا أكثر انشغالا بما يمر في تجربتنا، فالتعبري تكون له عندئذ قيمة لأنه يعمل على استبقاء اهتمامنا بالعمل وفي هذه الحالة يكون الاهتمام بالعمل أو الاستغراق فيه هو معيار القيمة، يكون التعبري ذا قيمة لأنه يسهم فيما يسميه برنسون Berenson «تأكيد الحياة»، طريق إثارة ملكات الخيال والانفعال فينا. لا من الوجهة املادية فحسب، ونحاول بلوغ أعلى قمم قدراتنا²¹. والواقع أن من املحال أن نفسر كيف يمكن أن يكون العمل الواحد «معبراً» و«رديئاً» في آن واحد ما لم يكن التعبري مختلفاً^٣ هو ذاته عن معيار القيمة، فلو كان الأمر على خلاف وهكذا يبني التفسري مثلاً أن العمل، فإن ما يعبر عنه لا يستطيع استبقاء اهتمام املشاهد. يتحدثون عن «التعبري» يفترضون مقدماً^٤ ا معياراً للقيمة ينبغي عليهم أن يتبينوه لأنفسهم فعلياً ألا ننسى أن املضمون التعبري ليس إلا والعمل الفني الكامل هو الذي يكون جيداً أو رديئاً من الوجهة فعندما نعزو إليه قيمة (بمعنى ما)، فلا بد لنا من أن نتحدث عن املادة والشكل، ذلك لأن املضمون التعبري لا يكون ذا قيمة إلا لأن الشكل ينظمه ذلك لأن للمادة الحسية واملوضوع الذي يعالجه العمل الفني أهميتهما بدورهما. وعلى ذلك فإن التعبري ليس كل شيء، إذن أن يكون هو مبدأ القيمة في الفن، ذلك لأنه إذا كانت دراستنا لتركيب الفن قد علمتنا شيئاً، املحال فهم أي من هذه العناصر أو تقديره إلا في داخل الكيان الكلي املوحد الذي هو